

كتاب الله، فقد تمنى الفراء أن يضرب أبا عبيدة لمسلكه في هذا التفسير (46)، وحرّم أبو حاتم السجستاني كتابه "المجاز" وقراءته. كما قال بذلك الزجاج والنحاس والأزهري (47)، وهؤلاء كلهم من كبار العلماء الذين بذلوا جهوداً في سبيل الكشف عن خبايا النص وخدمة لغة الكتاب المقدس.

إن ما قدّمه أبو عبيدة يشكّل، في حد ذاته نظرة تطورية تكشف عن المدّ الدلالي للنص القرآني، ويكشف في الوقت نفسه عن مستوى من التحليل يتعامل مع النصّ تعاملًا واقعيًا يبتعد فيه عن التعامل العاطفي، بذلك كانت دراسته فتحاً جديداً في مجال الدراسة العربية للنصوص؛ لأنها قدمت تصوراً عاماً للخصائص التعبيرية لدلالة اللفظ في مجالات الاستعمال المتعددة، والتي يمثل القرآن الكريم أرقى هذه المستويات الاستعمالية.

وتقدّر تحرر هذا الناقد من تلك القراءة السابقة للنص المقدس، وانطلق في فهم هذا النص من منطلق يعتمد فيه على تخير للعبارات التي تحفز على التحليل، وتستدعي الوقوف، وترتكز على المجاز، وقد استعان "بمخزون ثقافته من الشعر العربي لدعم آرائه، وحشد سيلاً من الأبيات الشعرية، مما يؤكد غزارة محفوظاته. وهذا المنهج صرفه عن الاشتغال بالقصص القرآني، وتفصيل القول فيه، كما صرفه عن تتبع أسباب النزول باستثناء إشارات عابرة ونادرة يقتضيها فهم النص، وأهمّل أقوال السلف وملاحظاتهم وشروحاتهم وكان يعمل برأيه في تخريج المعاني (48). ولا أحد ينكر قيمة السياق في تحديد معنى أي نص، الذي لا يمكن قراءته إلا ضمن سياقه، وتعدّ أسباب النزول من أهم عناصر سياق القرآن الكريم، كما تشكل القصص القرآني إطاراً موجهاً لفهم الكثير من الآيات القرآنية.

وعلى الرغم من هذا كله، فإن أبا عبيدة قد وفق في قراءة النصوص التي وقف عندها إذ ربطها بسياقات تعكس التوجه الذي يقوم على إعمال الرأي في تخريج المعاني، وكان بحق، منهلاً للكثير من الدارسين (49) كالبخاري 255 هـ، وابن قتيبة 276 هـ، والطبري 310 هـ، وابن دريد 321 هـ، وابن النحاس 370 هـ، والجوهري 391 هـ وابن حجر العسقلاني، وبهذا كان الرجل نموذج القارئ المتقف المعاصر الفردي، والذي ينطلق من الخصائص الداخلية للنص.

ويقوم أحد الدارسين المحدثين جهد كل من أبي عبيدة والفراء، إذ يقول: "ومع أن أبا عبيدة والفراء وغيرهما من رواد الدراسات البيانية اللغوية والنحوية